الحلقة (١٣)

في هذه الحلقة نتكلم عن مسائل النبوة...

➔ المسألة الأولى يقول المؤلف: "**وإن محمدا عبده المصطفى، ونبيه المجتبى، ورسوله المرتضى**"

فالاصطفاء والاجتباء والارتضاء متقاربة في المعنى، واعلم أن كمال المخلوق في تحقيق عبوديته لله سبحانه وتعالى، وكلما ازداد العبد تحقيقا لعبودية ازداد كماله واعتلت درجته، ومن توهم أن المخلوق يخرج عن العبودية بوجه من الوجوه، وأن الخروج عنها أكمل، فهو من أجهل الخلق وأضلهم، يقول الله تعالى {وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ}، وذكر نبيه محمد صلى الله عليه وسلم باسم العبد في أشرف المقامات، فقال في ذكر الإسراء {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ} وقال تعالى {وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوه} وقال تعالى {فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى} وقال {وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا} وبذلك استحق التقديم على الناس في الدنيا والآخرة صلى الله عليه وسلم.

ولذلك يقول المسيح ابن مريم عليه السلام يوم القيامة إذا طلبوا منه الشفاعة يقول: اذهبوا إلى محمد، فعبد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر.

فحصلت له تلك المرتبة بتكميل عبوديته لله تعالى واصطفاء الله له، قال الماتن: وإن محمدا بكسر الهمزة عطف على قوله إن الله واحد لا شريك له، لأن الكل معمول القول، أعني قوله "نقوله في توحيد الله".

➔ المسألة الثانية: وهي دلائل النبوة..

ودلائل النبوة كثيرة، والطريقة المشهورة عند أهل الكلام والنظر تقرير نبوة الأنبياء بالمعجزات، ولكن كثير منهم لا يعرف نبوة الأنبياء إلا بالمعجزات، وقرروا ذلك بطرق مضطربة، والتزم كثير منهم إنكار خرق العادات لغير الأنبياء حتى أنهم أنكروا كرامات الأولياء الثابتة، وكذلك السحر ونحو ذلك من خرق العادات، ولا ريب أن المعجزات دليل صحيح، لكن الدليل على النبوة غير محصور في المعجزات، والذين يدّعون النبوة أصدق الصادقين أو أكذب الكاذبين، ولا يلتبس الصادق بالكاذب إلا على أجهل الجاهلين، بل قرائن من يدّعي النبوة تُعرب عنه، وتُعرّف به، والتمييز بين الصادق والكاذب له طرق كثيرة فيما دون دعوى النبوة، من يدعي شيء وهو غير صادق به في أقل من النبوة يظهر ذلك على وجهه وعلى قسمات وجهه ومن كلامه وما يدعي به، فكيف بأمر النبوة، وما أحسن قول القائل:

لو لم يكن فيه آيات مبينة *** كانت بديهته تأتيك بالخبر

وما من أحد ادعى النبوة من الكذّابين إلا وقد ظهر عليه من الجهل والكذب والفجور، واستحواذ الشياطين عليهم ما ظهر لمن له أدنى تمييز، فالرسول لابد أن يخبر الناس بأمور، ولابد أن يفعل أمور يبين بها صدقه، والكاذب يظهر في نفس ما يأمر به وما يخبر عنه، وما يفعله ما يَبين به كذبه من

وجوه كثيرة، والصادق ضده، بل كل شخصين ادعيا أمرا أحدهما صادق والآخر كاذب، فلا بد أن يظهر صدق هذا وكذب هذا ولو بعد مدة، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم (عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، ولا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقا، وإياكم والكذب فإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابا) قال تعالى {هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ * تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ * يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ * وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ * أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ * وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ} فالكهان ونحوهم وإن كانوا أحيانا يخبرون بشيء من الغيبيات فيكون صدقا، فمعهم من الكذب والفجور ما يبين أن الذي يخبرون به ليس عن مَلك وليسوا بأنبياء، ولهذا لما قال النبي صلى الله عليه وسلم لابن الصياد: قد خبأت لك خبيئة، وقال: الدخ، قال النبي صلى الله عليه وسلم (اخسأ فلن تعدو قدرك)، يعني إنما أنت كاهن وقال: يأتيني صادق وكاذب وقال أرى عرش على الماء وذلك هو عرش الشيطان، وبين الله أيضا أن الشعراء يتبعهم الغاوون، والغاوي هو الذي يتبع هواه وشهوته، وإن كان ذلك مضرا له بالعاقبة.

فمن عرف الرسول وصدقه ومطابقة عمله بقوله، علم علما يقينيا أن النبي ليس بكاهن وليس بشاعر، والناس يميزون من الصادق والكاذب بأنواع من الأدلة، حتى فيمن يدعي الصناعات والمقالات،كمن يدعي الفلاحة والنساجة والكتابة، أو علم النحو والطب والفقه، فهو سرعان ما يظهر لغير المتخصص كذبه وبطلان دعواه.

أيضا النبوة مشتملة على علوم وأعمال لابد أن يتصف بها الرسول، وهي أشرف العلوم والأعمال، فكيف يشتبه الصادق بالكاذب، ولا ريب أن المحققين على أن خبر الواحد والاثنين والثلاثة قد يقترن به من القرائن ما يحصل معه العلم الضروري، كما يُعرف الرجل رضا الرجل وحبه وبغضه، وفرحه وحزنه، وغير ذلك مما في نفسه بأمور تظهر على وجه قد لا يمكن التعبير عنها باللسان، قال تعالى {وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ} وقد قيل: ما أسر أحد سريرة إلا أظهرها الله على صفحات وجه وفلتات لسانه، إذا كان صدق المخبِر وكذبه يُعلم بما يقترن به من القرائن، فكيف بدعوى المدعي أنه رسول الله ؟ كيف يخفى صدق هذا من كذبه، وكيف لا يتميز الصادق في ذلك والكاذب بوجوه من الأدلة؟! ولهذا لما كانت خديجة أم المؤمنين رضي الله عنها تعلم من النبي صلى الله عليه وسلم أنه الصادق البار، قال لها: لما جاءه الوحي (أني قد خشيت على نفسي) فقالت: كلا والله لا يخزيك الله أبدا، إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكل، وتقري الضيف، وتكسب المعدوم، وتعين على نوائب الحق، فهو صلى الله عليه وسلم لم يخف من تعمد الكذب، فهو يعلم من نفسه أنه لم يكذب، إنما خاف أن يكون قد عرض له عارض سوء،

وهو المقام الثاني، فذكرت خديجة ما ينفي هذا وهو ما كان مجبول عليه من مكارم الأخلاق، ومحاسن الشيم، وقد علم من سنة الله أنه من جبله على الأخلاق المحمودة، ونزهه عن الأخلاق المذمومة، فإنه لا يخزيه أبدا.

وكذلك قال النجاشي لما قدم عليه وفد المهاجرين، واستخبرهم وأخبروه، واستقرأهم القرآن فقرءوه عليه، قال: إن هذا والذي جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة.

وكذلك ورقة بن نوفل لما أخبره النبي صلى الله عليه وسلم بما رآه، وكان ورقة قد تنصر، وكان يكتب الأنجيل بالعربية، فقالت خديجة: أي عم اسمع من ابن أخيك ما يقول، فأخبره النبي صلى الله عليه وسلم بما رأى، فقال: هذا هو الناموس الذي يأتي موسى.

وكذلك هرقل ملك الروم فإن الرسول عليه الصلاة والسلام لما كتب إليه يدعوه على الإسلام، طلب من كان هناك من العرب، وكان أبو سفيان قبل إسلامه قدم في طائفة من قريش في تجارة إلى الشام، وسألهم عن أحوال النبي صلى الله عليه وسلم، فسأل أبا سفيان وأمر الباقون إن كذب أبو سفيان أن يكذبوه، فصاروا بسكوتهم موافقين له في الإخبار النبي صلى الله عليه وسلم عن أحواله، سألهم هرقل: هل كان في آبائه من ملك؟ أجابوا :لا، ثم سألهم هل هذا القول قاله أحد قبله؟ قالوا: لا، وسألهم هل هو ذو نسب فيكم؟ قالوا :نعم، سألهم هل تتهمونه قبل أن يقول ما قال؟ قالوا :ما جربنا عليه الكذب، بل كان اسمه الأمين-قبل أن يأتيهم بالحق- وسألهم هل اتبعه ضعفاء الناس أم أشرافهم؟ فردوا: بل الضعفاء من اتبعوه، وسألهم هل يزيدون أم ينقصون؟ فذكروا :أنهم يزيدون، وسألهم هل يرجع أحد منهم عن دينه سخطة بعد أن يدخل فيه؟ قالوا: لا، وسألهم قل قاتلتموه؟ قالوا :نعم، وسألهم عن الحرب بينه وبينهم؟ قالوا: يدال علينا مرة وندال عليه مرة أخرى، وسألهم هل يغدر ؟ قالوا :لا، وسألهم بماذا يأمركم؟ فقالوا: يأمرنا بأن نعبد الله وحده ولا نشرك به شيئا، وينهانا عما كان يعبد آباءنا ويأمرنا بالصدق والعفاف والصلة.

ثم بين هرقل ما في هذه المسائل من أدلة فقال: سألتكم هل كان من آبائه من ملك قلتم: لا، قلت لو كان في آبائه ملك قلت: رجل يطلب ملك أبيه، سألتكم هل قال :هذا القول فيكم أحد قبله فقلتم: لا، فقلت: لو قال هذا القول أحد قبله قلت :رجل إأتم بقول قيل قبله، وسألتكم هل تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال قلتم: لا، قلت قد علمت أنه لم يكن ليدع الكذب على الناس، ثم يكذب على الله تعالى، وسألتكم هل ضعفاء الناس يتبعونه أم أشرافهم قلتم بل ضعفاءهم، قلت: كذلك هم أتباع الرسل في أول مرهم يتبعهم الضعفاء، وسألتكم هل يزيدون أم ينقصون، قلتم: بل يزيدون كذلك الإيمان حتى يتم، وسألتكم :هل يرتد أحد منهم عن دينه سخطة؟، أي يغضب من دينه سخطة بعد أن يدخل فيه، فقلتم لا، قلت كذلك الإيمان إذا خالطت بشاشته القلوب لا يسخطه أحد.

وهذا من أعظم علامات الصدق والحق فإن الكذب والباطل لابد أن ينكشف في آخر الأمر، فيرجع عنه أصحابه ويمتنع عنه من لم يدخل فيه، والكذب لا يروج إلا قليلا ثم ينكشف، يقول هرقل: وسألتكم كيف الحرب بينكم وبينه، فقلتم: إنها دول وكذلك الرسل تبتلى وتكون العاقبة لهم، وسألتكم هل يغدر، فقلتم: لا، وكذلك الرسل لا يغدرون، وهو لما كان عنده من علمه بعدد الرسل وسنة الله فيهم، أنه تارة ينصرهم وتارة يبتليهم وأنهم لا يغدرون، علم أن هذه علامات الرسل وأن سنة الله في الأنبياء والمؤمنين أن يبتليهم بالسراء والضراء، لينالوا درجة الشكر والصبر، كما جاء في الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم (والذي نفسي بيده لا يقضي الله للمؤمن قضاء إلا كان خيرا له، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له)، والله تعالى قد بين في القرآن الكريم ما في إدالة العدو عليهم يوم أحد من الحكمة، قال تعالى: {وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} وقال تعالى {الم* أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ}، وغير ذلك من الآيات والأحاديث الدالة على سنته وحكمته التي بهرت العقول.

يقول هرقل: وسألتكم عما يأمر به، فقلتم: يأمرنا بعبادة الله ولا نشرك به شيئا، ويأمركم بالصلاة والزكاة والصدق والعفاف والصلة، وينهاكم عما كان يعبد آباؤكم وهذه صفة نبي، -من يأمر بهذه الأشياء لا يكون إلا نبيا- وقد كنت أعلم أن نبيا يبعث -والكلام لهرقل- ولم أكن أظنه منكم، ولوددت أني أخلص إليه لولا ما أنا فيه من الملك لذهبت إليه، وإن كان ما تقول حقا فسيملك موضع قدمي هاتين، -وكان المخاطب الصحابي الجليل أبو سفيان بن حرب قبل إسلامه، وكان من أشد الناس بغضا للرسول- قال: فقلت لأصحابي ونحن خروج، لقد أَمَرَ أَمْرُ بن أبي كبشة -يقصد الرسول صلى الله عليه وسلم- إنه ليعظمه مَلك بني الأصفر -يقصد هرقل- ومازلت موقنا بأن أمر النبي صلى الله عليه وسلم سيظهر حتى أدخل الله علي الإسلام وأنا كاره.

ومما ينبغي أن يعرف أنه ما يحصل في القلب مجموع أمور قد لا يستقل بعضها به، بل ما يحصل للأنسان من شبع، وري، وشكر، وفرح، وغم، بأمور مجتمعة لا يحصل ببعضها، لكن بعضها قد يحصل بعض الأمر، وكذلك العلم بخبر من الأخبار، فإن خبر الواحد يحصّل للقلب نوع ظن، ثم الأخر يقويه، إلى أن ينتهي إلى العلم، حتى يتزايد ويقوى، وكذلك الأدلة على الصدق والكذب ونحو ذلك، وأيضا فإن الله سبحانه أبقى في العالم الآثار الدالة على ما فعله بأنبيائه والمؤمنين من الكرامة، وما فعله لمكذبيهم من العقوبة، فتواتر الطوفان وإغراق فرعون وجنوده، ولما ذكر الله سبحانه قصص الأنبياء في سورة الشعراء كقصة موسى وإبراهيم ونوح ومن بعده، يقول في آخر كل قصة: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ}.

وبالجملة فالعلم (بأنه كان في الأرض من يقول إنه رسول الله وأن أقواما اتبعوهم وأن أقواما خالفوهم

وأن الله نصر الرسل والمؤمنين وجعل العاقبة لهم وعاقب أعداءهم) هو من أظهر العلوم المتواترة وأجلاها، ونقل أخبار هذه الأمور أظهر وأوضح من نقل أخبار من مضى من الأمم من ملوك الفرس وعلماء الطب، كبقراط وسقراط وغيرهم وأتباعهم، ونحن اليوم إذا علمنا بالتواتر من أحوال الأنبياء وأوليائهم وأعدائهم، علمنا يقينا أنهم كانوا صادقين على الحق من وجوه متعددة، منها أنهم أخبروا الأمم بما سيكون من انتصارهم وخذلان أعدائهم وبقاء العاقبة لهم، وهذا ظاهر في انتشار الإسلام وبقائه بعد النبي صلى الله عليه وسلم لمدة ألف وأربعمائة سنة، ومنها ما أحدثه الله لهم من نصرهم وإهلاك عدوهم، إذا عُرف الوجه الذي حصل عليه كغرق فرعون لما كذب وحارب موسى عليه السلام، وغرق قوم نوح لما كذبوه، وبقية أحوالهم عُرف صدق الرسل، ومنها أن من عرف ما جاء به الرسل من الشرائع وتفاصيل أحوالهم، تبين له أنهم أعلم الخلق وأنه لا يحصل مثل ذلك من كذاب جاهل، وأن فيما جاءوا به من الرحمة والمصلحة والهدى والخير، ودلالة الخلق على ما ينفعهم، ومنع ما يضرهم ما يبين أنه لا يصدر إلا عن راحم بَرٍّ، يقصد غاية الخير والمنفعة للخلق، ولذكر دلائل نبوة محمد صلى الله عليه وسلم كتب مؤلفة منها "دلائل البيهقي" وغيرها، الحاصل أن بسط مثل هذه الأمور يطول ويُرجع إلى هذه الكتب، لعلي أختم هذه الحلقة واكتفي بما ذكرت من هذه النقاط من المنهج.